مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (3)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (3) 2015

مفهوم السببية في الأسطورة
(وادي الرافدين إنموذجاً)

الدكتور عبد الحميد الصالح*
رنيم يوسف**

(تاريخ الإيداع 8 / 2 / 2015. قبل للنشر في 7 / 5 / 2015)

□ ملخّص □

يدور هذا البحث حول مفهوم السببية في الفكر الرافدي القديم محاولاً أن يقدم الإجابة عن السؤال الجوهري: هل يؤمن الفكر الرافدي بمفهوم السببية و يقوم على أساسه؟

بمعنى: هل تحمل الأساطير الرافدية التي تعرفنا من خلالها على المجتمع و الفكر الرافدي إرهاصات لهذا المفهوم؟

و إذا كانت الإجابة: نعم، فهل يمكننا الإقرار بأن معنى السببية في الفكر الرافديهو نفسه كما يُعرف اليوم في الأبحاث العلمية التي تسعى للوصول إلى قوانين عامة تحكم الكون و العالم بحيث يكون بمقدورها أن تفسر اختلاف الحالات و الظروف. أم أنَ مفهوم السببية له – في الفكر الرافدي– خصوصية فريدة هي ما نخمن أن البحث سيعمل على الوقوف عليها و فهمها.

من هنا سنحاول– قدر المستطاع– أن نجيب عن هذه الأسئلة بالاعتماد على فهمنا للكون الرافدي و محتوياته الزاخرة التي كانت تتفاعل مع بعضها البعض، فتؤثر و تتأثر بحيث تشكل مجتمعاً رافدياً ينطلق فهم الإنسان فيه من وجهة نظر ترى في الشخصيات محركاً أساسياً للكون و العالم، و تغض الطرف عن أحداثه و ظواهره فيما هي كذلك.

وهو ما ينقلنا للإجابة على سؤال جوهري يتلخص في المدى الذي يستطيع فيه الإنسان – بموجب هذا الفهم الرافدي للكون– أن يخلق مصيره بذاته في ذات الوقت الذي يخلق فيه مصير الموجودات من حوله.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، السببية.

* **أستاذ– قسم الفلسفة– جامعة دمشق– سورية.**
** **طالبة دراسات عليا (دكتوراه)– قسم الفلسفة– جامعة دمشق– سورية.**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (3)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (3) 2015

The Principle of Causality in Myth

Dr. Abd Alhamed Salh*
Ranem yousef**

(Received 8 / 2 / 2015. Accepted 7 / 5 / 2015)

□ ABSTRACT □

This approach discusses the Causality principal in ancient Iraqain civilization trying to answer the important question which is:

Did the Iraqian thought believe in Causality and depend on it?

Did Iraqian Myths include this principle?

And if the answer is yes, can we say that the ancient Iraqian Causality is similar to the temporary scientific Causality which dependson stationary lows in all cases?

We will try to answer these questions depending on our understanding of the ancient Iraqian world:

What is the relationship among its existents?

What are the powers which control this world and how?

And how much man canchangethe destiny of the world?

These questions will be answered depending on the ancient Iraqian Myths trying to highlight importance of this civilization which have affected humanity.

Keywords: Causality, Myth.

* **professor – philosophy section – Damascus university – Syria.**
** **Postgraduate student – philosophy section – Damascus university – Syria.**

مقدمة:

مثلت الحضارة الشرقية القديمة، و الرافدية خصوصاً، الدعامة الأساسية للفكر الإنساني، و قدم المفكر الرافدي رؤيته للعالم مستنداً في ذلك إلى العمليات المنطقية الأساسية كالاستدلال و الاستقراء و الاستنتاج فضلاً عن التجريد العقلي. و هذا ما يجعلنا نقر بأن ما يقال عن (المعجزة اليونانية) ليس دقيقاً:" فلم تكن نشأة العلم يونانية خالصة، و لم يبدأ اليونانيون في استكشاف ميادين العلم من فراغ كامل، بل إن الأرض كانت ممهدة لهم في بلاد الشرق التي كانت تجمعهم بها صلات تجارية و حربية و ثقافية، و التي كانت أقرب البلاد جغرافياً إليهم. و إذا كانت الحلقة المباشرة، فيما يتعلق بانتقال العلوم الأساسية من البلاد الشرقية إلى اليونانيين، هي حلقة مفقودة، فإن المنطق و التاريخ و الكشوف المتتابعة تؤكد لنا أنها لا بد كانت موجودة"[1]

و لذلك فقد آثرنا في هذا البحث تقديم – و لو خطوة بسيطة– في سبيل إثبات فضل الحضارة الشرقية على الحضارات الأخرى، و سنحاول بحث ذلك من خلال إلقاء الضوء على مفهوم السببية في الفكر الرافدي القديم تحديداً، حيث أن ذلك المفهوم يعتبر إثباتاً مقبولاً من قبل الغالبية على وجود إرهاصات لتفكير منطقي سابق على اليونان.

مشكلة البحث و تساؤلاته الرئيسية:

إن مفكرين من أمثال أندرو لانغ و برينت... و غيرهم قد نجحوا في تقديم الاسطورة كدليل من أدلة تخلف الشعوب القديمة و قلة معرفتها،و عليه فلم يُنظر إلى الفكر الشرقي القديم نظرة موضوعية و إنما ظلت الكثير من الأبحاث التي تتناوله تدور في فلك الأسطورة كقيمة أدبية لا غير.

إلا أن اتجاهاً أخر قد قدم الاسطورة بوصفها المعبر عن تطلعات الشعوب، بل إنها الوثيقة التاريخية و السياسية و الدينية ... التي ترمز إلى طريقة تفكير إنسان الشرق القديم. و ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أكثر من ذلك فاعتبروا أن الفكر الأسطوري هو فكر علمي يعتمد على قوانين و أدلة كان لها وجوداً حقيقياً و تأثيراً فعالاً في فكر و حضارة الشرق القديم عامة و العراق القديم خاصة.

و من أصحاب هذا الاتجاه: فرانكفورت، أوراسيل، سارتون، جوزيف كامبل،... و غيرهم.

و انطلاقاً من ذلك نسأل الأسئلة التالية:

-ما هو مفهوم السببية في الفكر الرافدي القديم؟

-هل نستطيع إيجاد الرابط بين السببية الأسطورية و السببية العلمية؟

-كيف انعكس مفهوم السببية على حضارة وادي الرافدين؟

أهمية البحث:

-تسليط الضوء على الحقيقة كما جسدتها الأسطورة و الفرق بينها و بين الحقيقة كما جسدها العلم.

-انعكاس هذه الفكرة على الحياة الدينية و السياسية ... في وادي الرافدين.

-معرفة مكانة الإنسان الرافدي في مجتمعه.

-تتبع الحقائق العلمية التي توصل إليها الفكر الرافدي القديم.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على حضارة وادي الرافدين العريقة: ما هي؟و ما الذي يميزها؟ و ذلك من منطلق مفهوم السببية في الفكر الرافدي القديم و كيف استطاع اعتماد هذا المفهوم، محاولين أن نقدم ما توصلنا إليه

[1] **زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، جامعة دمشق،دمشق، ط 10، 2005، ص 120.**

بطريقة مختلفة بعيداً عن النظرة الضيقة التي تناولت هذا الفكر و الفكر الشرقي القديم عموماً، نقصد تلك النظرة التي وسمت هذا الفكر بالتخلف و السذاجة.

راجينَ أن تقدم هذه الدراسة خطوة جديدة في مضمار أبحاث الشرق القديم و الرافدي القديم تحديداً ذلك الفكر الذي أثر و ما زال يؤثر في الحضارات الإنسانية الأخرى.

منهجية البحث:

المنهج الذي سنتبعه في هذا البحث سيكون مزيجاً من المنهج التاريخي (خاصةً عند دراسة الأساطير الرافدية) و المنهج التحليلي و ذلك بأسلوب نقدي محاولين من خلاله أن نؤكد بعض الأفكار و نفند بعضها الأخر.

الدراسات السابقة:

لم نجد فيما بين أيدينا من مصادر و مراجع بحثاً يحمل العنوان ذاته و إنما اقتصرت البحوث على إفراد فصل أو فقرة في فصل للحديث عن هذه الفكرة.

و أهم المراجع التي استفاضت في شرح هذه الفكرة:

-بول ماسون – أوراسيل: في كتابه(الفلسفة في الشرق).

-صموئيل كريمر: بحث مفهوم و تطور الكلمة السومرية (مي) (me) و التي تعني النواميس الناظمة للكون. و ذلك في كتابيه(السومريون) و (من ألواح سومر).

-مرغريتروثن: في كتابها (علوم البابليين) قامت بإلقاء الضوء على المنطق البابلي و كيفية استخدامه في ممارسات العرافين و المنجمين الكلدانيين وصولاً إلى استخدامه في الفلك و الكيمياء و غيرها من العلوم.

-كما قام هـ. فرانكفورت و غيره من الباحثين في كتاب (ما قبل الفلسفة) بإلقاء الضوء على هذه الفكرة في معرض الحديث عن كيفية فهم الرافدي القديم لموجودات الطبيعة و القوى التي تقف وراءها.

" ارتبط ظهور الفكر الفلسفي في بداية الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد بابل بالخطوات الأولى لظهور العلوم الطبيعية من جهة و بالأسطورة من جهة ثانية...كما جسدت الأسطورة المحاولات الأولية للإنسان في فهم الظاهرات الطبيعية مما قاد سكان بلاد ما بين النهرين إلى تخطي تخوم الأسطورة إلى عالم الفكر الفلسفي حيث تحولت الأساطير تدريجياً إلى معتقدات فكرية فلسفية عن أصل العالم و ارتقائه و تحولت النجوم مثلاً من قوى خرافية هائلة تخلق العالم وتسيره و تؤثر في مصير الأفراد و المجتمعات إلى وسائل تعين الناس في عملية حساب الزمن و في التنبؤات الفلكية"[2].

ولذلك فلن نستطيع بحث مفهوم السببية في الفكر الرافدي القديم ما لم نلقِ الضوء على مفهوم الأسطورة و الوظائف التي تقوم بها.

ما هي الأسطورة؟

-الأسطورة مفرد أساطير، و الأساطير هي:

" الأحاديث التي لا نظام لها، جمع إسطار و إسطير بكسرهما، و أسطور، و بالهاء في الكل. "[3]

أما لسان العرب فقد جاء فيه فيما يخص الأسطورة قول ابن بُرزخ:" يقولون للرجل إذا أخطأ فكنوا عن خطئه:

---

[2] الصالح، عبد الحميد، الفلسفة القديمة، دار ابن حيان، دمشق، 1986، ص7.

3 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، جزءان، ط 6، 1998، ص 407.

أسطرَ فلان اليوم، و هو الاسطار بمعنى الإخطاء. و الأساطير: الأباطيل. و الأساطير: أحاديث لا نظام لها، واحدتها إسطار و إسطارةٌ بالكسر، و أسطيرٌ و أسطيرةٌ و أسطورٌ و أسطورةٌ بالضم."[4]

و في تاج العروس "الأباطيل و الأكاذيب و الأحاديث لا نظام لها".[5]

الأسطورة فلسفة:

إذا حاولنا البحث عن تعريف الأسطورة في الفلسفة فسوف لن نهتدي إلى تعريف واحد يؤمن به كل الدارسون و يحيط بكل ما يمكن أن تعنيه الأسطورة، و هنا نستعين بمرسيا ألياد الذي يرى أن: " التعريف الذي يبدو أقل كمالاً من سواه، لأنه أكثر شمولاًمن سائر التعريفات، هو التالي: تروي الأسطورة تاريخاً مقدساً، و تخبر عن حدث وقع في الزمن الأول، زمن "البدايات" العجيب".[6]

فالأسطورة – و إن شابها شيء من المبالغة في وصف أبطالها و حوادثها– فإنها تروي أحداثاً لها دلالاتها في المنظومة الفكرية للحقبة الزمنية التي تنتمي إليها هذه الأساطير، بحيث نستطيع من خلالها أن نتعرف على تلك المنظومة و نسقطها على الكثير من الأحداث التي نرغب بفك رموزها. و هي تستند إلى الأيديولوجيا الدينية و السياسية و الاجتماعية ... لزمانها. و بهذا المعنى تكون حقيقية و واقعية و علمية أيضاً طالما أنها تستند إلى قوانين و أنظمة أثبتت الدراسات و المكتشفات أنها كانت موجودة بالفعل بل أكثر من ذلك. نحن نجد الكثير من تلك القوانين و الأنظمة ما زال فاعلاً حتى يومنا هذا.

ما الوظائف التي تقوم بها الأسطورة؟

يجمل بعضهممن أمثالهم جوزيف كامبل وظائف الأسطورة في ما يلي:

أ – الوظيفة الصوفية: التي تيح للإنسان محاكاة السر المتعالي بالعلاقة مع السر الكامن وراء كل الأشياء و كل الموجودات و كل الأفكار و معايشة ذلك السر.

ب – الوظيفة العلمية: هي التي تهم العالِم في كشفه عن شكل الكون و خواص الموجودات.

ت – الوظيفة الاجتماعية: التي تبرر نشوء نظام اجتماعي ما و تسعى لمعرفة أهدافه و الوقوف على عوائق تحقيق وظيفته الاجتماعية.

ث – الوظيفة الإنسانية:(إن صح التعبير) و التي تجعل الإنسان متناغماً مع كل ما يحيط به.[7]

-السببية في الأسطورة:

بداية ، لا بد لنا من إلقاء الضوء على نظرة الرافدي القديم للكون من حوله كي نستطيع بالتالي إدراك مفهوم السببية في أساطير الفكر الرافدي القديم .

[4] أبن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الرابع، ط 6، 1997،ص 363.

5الزبيدي، تاج العروس، دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد الثالث، د.ت، ص 267.

6 إلياد، ميرسيا، ملامح من الأسطورة، ترجمة حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة، سورية، ط 1، 1995، ص 11.

7 للاطلاع أكثر راجع كامبل، جوزيف، و موريز، بيل، سلطان الأسطورة، ترجمة بدر الدين، تحقيق إكيسوفلاوز، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص 60-64.

نظرة الرافدي القديم للكون من حوله:

يبدو أن الإنسان الرافدي القديم– والشرقي عموماً– لم يكن ينظر إلى العالم من حوله كما ننظر نحن اليوم ؛ فنحن نتعامل مع موجودات عالمنا بصفتها أشياءً مختلفة عنا،موجودةٌ خارجنا، في حين يرى الإنسان الشرقي القديم الأمر على نحو مختلف تماماً فهو يشخصن موجودات عالمه و ينظر إليها بصفتها أشخاصاً تنطوي على كل احتمالات الوجود والفعل التي يحملها هو نفسه .ولذلك فهو يخاطب هـ ذه الموجودات بـ"أنت" بينما نخاطبها نحن بـ"هو"،الغائب ،المختلف. والفرق كبير جداً بين (علاقة الأنا بالهو)و(علاقة الأنا بالأنت)*

أ –علاقة الأنا بالهو:

في هذه العلاقة يقف الأنا في مواجهة الهو و كأنهما طرفين مختلفين و متغايرين، هنا يَدرُسُ الأنا الهو بصفته موضوعاً مستقلاً استقلالاً تاماً عنه، فهذا الهو هو الجماد الذي لا حياة فيه و لا غاية شخصية توجهه.

ب –علاقة الأنا بالأنت: و هي العلاقة التي يعمل على أساسها العراقي القديمفإن الأنا يتعامل مع موجودات عالمه بصفتها أشخاصاً، فموجودات الطبيعة – بالنسبة إليه– حية، ذات إرادة و شخصية، – حسب ما ذهب فرانكفورت–الذي يقر بأن:

"الدنيا لا تبدو للانسان البدائي جماداً أو فراغاً، بل عارمة بالحياة، و إن البدائي قد يجابه أية ظاهرة منظواهر الطبيعة في أية لحظة، لا كـ " هو" بل كـ " أنت". و الأنت في هذه المجابهة تكشف عن الفردية، و الخواص، و الإرادة، و ينجم عن هذه التجربة المتكررة للعلاقة بين"الأنا و الأنت" نظرة شخصانية لا تناقض فيها. فتتشخص الأشياء و الظواهر المحيطة بالإنسان على درجات متفاوته. فهي حية بشكل ما، و لها إرادة خاصة، و كل منها شخصية محددة."[8]

و هكذا نستطيع أن نفهم كيف نظر الرافدي القديم للكون من حوله، إنه لم يحاول إطلاقاً حل ألغاز الكون بالطرق و الأفكار العلمية، لأن قيامه بذلك يتطلب منه الانعتاق من علاقته بعالمه المحيط وهذا ما لا يمكن أن يخطر في باله أصلاً.

و قد عبر الدكتور الطيب التيزيني عن ذلك بقوله:"إن الكون العضوي(الإنسان)، يمثل، هنا امتداداً للكون غير العضوي(الطبيعة)، بقدر ما تغدو الطبيعة(الكون اللاعضوي) امتداداً للإنسان(الكون العضوي) ضمن هذه العلاقة المتضايفة يصبح الأثنان وجهان لوجود واحد"[9]

و على هذا الأساس فإن الفكر الرافدي القديم يبحث في كل ظاهرة عن السبب . و السبب دائماً يكون شخصاً، أي أن وراء كل ظاهرة شخصية ما، إرادة ما، هي التي أرادت لتلك الظاهرة أن تكون على هذا النحو.

*** نجد شرحاً مفصلاً مع الأمثلة لها تبين العلاقتين في كتاب، هـ.فرانكفورت و آخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الحياة،بغداد، 1960، ص 15–17.**

8 فرانكفورت. هـ و آخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الحياة، بغداد، 1960، ص 151.

9 تيزيني، طيب، دراسات في الفكر الفلسفي في الشرق القديم، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1987، ص31.

– ما أسباب العقاب؟

من منظور فهم العراقي القديم للكون من حوله و علاقات موجوداته بعضها ببعض فقد حاول أن يقدم، عبر الأساطير، الأسباب التي نتج عنها كل شيء، فكل موجود له قصة و له سبب أدى إلى نشوئه. و من ذلك محاولة الإنسان الرافدي تفسير خلق الكون بكل موجوداته، كما حاول تفسير الكوارث و الأمراض انطلاقاً من رؤيته لعالمه المحيط و القوى و الإرادات الكامنة في موجوداته.

فعلى سبيل المثال:

نقرأ الأسطورة الطريفة التي فسرت ألم الأسنان: حيث أن السوس جاء إلى الإله شاكياً باكياً، وجرت بينهما المحاورة التالية:

" ماذا تعطيني لطعامي؟

ماذا تعطيني لشرابي

سأعطيك شجر التين الناضج

أو أعطيك المشمش

بماذا يفيدني المشمش

دعني أصعد و أتخذ لي مسكناً

بين الأسنان و عظام الفك"[10]

ونلاحظ في هذه الأسطورة أن الإنسان الرافدي لم يستسغ وجود الألم بدون سبب، لم يستسغ وجود الشيء بدون مسبب، فلا بد من سبب ما هو الذي أدى إلى نشوء ألم الأسنان، إن هذه الأسطورة – على بساطتها و سذاجتها– تحاول أن تعطي التفسير لوجود ألم الأسنان، إنها تحاول أن تجد سبباً للألم و تبريراً لوجوده.

كما نجد في بعض النصوص شرحاً للأسباب التي يمكن أن تحل اللعنة على الشخص، نقرأ مثلاً فيما يسمى "امتحان الشعور" أو جدول الأخطاء المحتملة التي نجدها في بحث خاص بطرد الأرواح الشريرة و نسميه "شربو"

"هل خيب أمل إلهه أو إلهته ؟!

ألم يحضر الطقس الخاص بتقديم القربان بصورة دائمة و بمواظبة؟

... هل استخدم موازيناً كاذبة...؟

هل استولى على زوجة جاره، و أسال الدم منه...؟"[11]

و نلاحظ أن هذه الخطايا هي مزيج من الخطايا الدينية و الدنيوية على حد سواء، بل يمكن النظر إليها باعتبارها السبب غير المباشر للخطيئة.

و عليه ماذا عن السبب المباشر و ما هو مصدره، إنه الشياطين التي تتلبس الإنسان (بفعل الخطيئة) و تضع قدمها في قدمه، و يدها في يده، و تنام في فراشه.

غير أن هذه الشياطين إذ تفعل ذلك فبأمر من الإله الذي يوحي إليها بتلبس الشخص المغضوب عليه، و هو الذي يعطي هذه الشياطين القدرة على التأثير في الإنسان بحيث يغدو محطاً للشرور و الأمراض، و لن يستطيع التخلص منها إلا إذا أرضى ألهته (بقربان مثلاً) فتوعز بدورها إلى الشياطين لتركه و شأنه.

---

[10] السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، دمشق، ط 13، 2003،ص 105.

[11] بوتيرو، جان، الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2005، ص 120– 121.

إذن: ثمة عدالة – نوعاً ما – في التعاطي مع الإنسان، بمعنى: أن الإنسان الرافدي يتقبل العقاب برضى و تسليم لاعتقاده بأنه لو لم يستحق العقاب لما وقع به.

أما العقاب الأكبر الذي يمكن أن يحل بالإنسان فهو الموت، خاصةً إذا علمنا أن عالم ما بعدالموت في فكر وادي الرافدين لا يشبه مثيلاته في الحضارات الأخرى:

ففي وادي الرافدين الوجود في الجنة هو للآلهة فقط، أما البشر – على اختلاف انتماءاتهم و درجاتهم– سينزلون إلى عالم الظلمات الذي لا رجعة لساكنه و لا راحة لقاطنيه.

" فالثواب و العقاب يحدثان للمرء في أثناء حياته، و بموته يتوقف ذلك و يتساوى الجميع في بلي الجسد على الأرض و في نزول الروح إلى العالم الأسفل."[12]

إذن: فقد أعتقد العراقي القديم أن الخطأ يستوجب العقوبة، و الخطايا ستسهم في تحديد مصائر الأشخاص، و تبعاً لذلك إذا أراد الإنسان مصيراً محموداً فعليه أن يأخذ بأسباب ذلك.

و هذا ما يقودنا إلى السؤال عن إمكانية تأثير الإنسان في مصيره و مصير الموجودات من حوله:

حيث يبدو لدارس حضارة وادي الرفدين أن المصير كان من الثبات و الحتمية ما لا يمكن للإنسان معه التدخل، كيف لا و قد حددت المصائر لحظة النطق باسم الشيء، بشراً كان أم ظاهرة أم إله ... نقرأ في سفر التكوين البابلي (إنوماإليش – حينما في الأعالي) عن تحديد المصير لحظة النطق باسم الشيء:

" حينما في الأعالي لم تكن السماء (بعد) قد سُميت،
و في الأسافل لم تكن الأرض(بعد) قد ذكرت باسم،
حينما لم تكن أية آلهة (أخرى) قد جاءت إلى الوجود،
(حينما) لم يكونوا قد أُطلقت عليهم أسماؤهم، و لم تتحدد
مصائرهم (بعد) ..."[13]

بيد أنا نلاحظ في العديد من النصوص أن كلمة الآلهة كانت تخرق و تتغير في حالات خاصة، منها ما يخص الإنسان الذي يتاح له – في مرحلة ما – أن يرسم مصيراً ليس لنفسه فحسب و إنما للموجودات أيضاً.[14]

ففي (أسطورة الطوفان السومري)، و التي عرفت (بأسطورة أترخسيس) في العهد البابلي– التي كان لها تأثير بالغ الأثر ليس في العراق فحسب و إنما في غالبية الحضارات كذلك– نجد أن الآلهة حين قررت الطوفان العظيم أوحى إنكي (الإله المتعاطف مع البشر) إلى زيوسودرا* لبناء الفلك العظيم، و حمل فيه زوجين من كل الموجودات قبل أوان الطوفان، و عندما بدأت العاصفة أخذت في طريقها كل شيء، و كان حدثاً عظيماً لم تتحمله الآلهة.

و في غمرة حزن الآلهة و ندمها لاحَ فلك زيوسودرا حاملاً أملاً بحياة جديدة. فما كان من الآلهة إلا أن كافأته على ذلك و منحته الخلود.

---

[12] حنون، نائل، عقائد الحياة و الخصب في الحضارة العقارية القديمة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2002، ص 222–223.

[13] هايدل، الكسندر، سفر التكوين البابلي، ترجمة سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا/بغداد، 2007، ص 35.

[14] للإطلاع أكثر حول مفهوم المصير راجع كلشكوف، الحياة الروحية في بابل، ترجمة عدنان عاكف حمودة، دار المدى، دمشق، ط 1، 1995، ص 44–46.

***زيوسودرا: هو أوتنابشتيم و أترخسيس، و هو نوح في الأديان السماوية.**

" (زيوسودرا) الملك
"سجد أمام (أوتو)* و(إنليل)**
ووهباه حياة تشبه حياة الإله
"وأعطياه نفساً خالداً كذلك الذي عند الإله
"(زيوسدرا)الملك
"الذي يحمي الزرع ويصون ذرية الجنس البشري " [15]

إذن:فقد نجح زيوسدا ليس في تغيير مصيره فحسب وإنما في تغيير مصير الموجودات من حوله ،بما في ذلك الآلهة .

وهكذا أعطي للإنسان– الذي مثله زيوسودرا، أي نوح– المجال للتأثير في الكون من حوله،وتُرك له الباب مفتوحاً لرسم مصيره بعد أن مُكن من معرفة أسباب غضب الآلهة و رضاها.

بيد أنه لم يكن بمستطاعه– أي زيوسودرا– أن يفعل ذلك إلا من خلال تقديم القرابين و الأضُحياتللألهة، حيث أن "شعوب بلاد ما بين النهرين كانوا يبحثون عن مصائر الإنسانية في دراسة العضو الأكثر ارتواءً بالدم،ألا وهو الكبد.وسواء اعتبرنا التضحية حادثاً طبيعياً،أو تصورناها عملاً فوق الطبيعة ،فالخطأ متساو،لأن القيمة الوحيدة بل القيمة المطلقة،لهذه الشعيرة ترتكز على أنها تأمر الطبيعة وتخضع لها في آن واحد،وقد سبقت بذلك العلم .وربما قبلنا مثل هذا العمل من أناس فطريين،لكننا لانستطيع الاعتقاد بأن البابليين عملوا بهذه الشعائر دون أن يراعوا سير الوقائع المنتظمة،بل هم على نقيض ذلك امتازوا بالقدرية الكونية المستندة إلى الاعتقاد بوجود صلات بين الحوادث والظواهر ."[16]

وبالطبع أعطي دور لأخذ الإنسان بالأسباب في تقرير المصير الذي يرغب :
"عندما تختط المستقبل يكون إلهك إلهك ،
وإذا لم تختط المستقبل ليس إلهك بإلهك"[17]

في ضوء ما سبق هل يمكن أن نسأل ما إذا كان الإنسان العراقي القديم قد اعتقد بمفهوم السببية؟

رأينا كيف ربط المفكر الرافدي النتيجة بالسبب:فقد ربط الألم بالخطيئة ،وعزا سبب المصائب إلى العقاب المفروض من قبل الآلهة ،وبحث عن السبب وراء الظواهر وتداعياتها ،وربطها بأسباب تتعلق بالشخصيات التي تقف في الظواهر ووراءها أولاً ،كما ربطها بأعمال الإنسان واستحقاقه للثواب والعقاب ثانياً .

و هنا لابد لنا من إيجاد رابط ما بين السببية العلمية والسببية الأسطورية:

فالسببية العلمية:تعتمد قوانين ثابتة مهما اختلفت الظروف،وهي تقوم بوصف الظواهر وتداعياتها،وتتنبأ بحركة هذه الظواهر انطلاقاً من نظريات ثابتة يؤمن بها كل البشر على اختلاف انتماءاتهم.

---

* *أوتو: إله الشمس.

** *إنليل: إله العاصفة.

15 هنري هوك، صموئيل، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة و الإعلام، بغداد، 1968، ص 20.

16 أوراسيل– بول ماسون، الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف، مصر، 1947، ص 75.

17 فرانكفورت.هـ و آخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، دار الحياة، بغداد، 1960، ص 241.

كما أن هذه السببية تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن ميول العالم وأهوائه،فضلاً عن أننا نستطيع إثباتها فهي واقعية وحقيقية وثابتة .

بينما السببية الأسطورية :فمنشؤها مختلف :فهي تتبع النظام الفكري لكل مجتمع ،وهي تحاول أن تعطي التبرير لظاهرة ما أو مرض ما أو ...لتخرج بقوانين لا يمكن تطبيقها في كل زمان ومكان ،ولكنها مع ذلك حقيقية لأنها تعبر عن حقبة زمنية ،واعتقادات وأفكار كان لها وجوداً حقيقياً وتأثيراً فعالاً في فكر وحضارة تلك الشعوب التي تعمل بها.

كما أنها غير مستقلة عن ميول وأهواء المفكر ،الرافدي هنا، طالما أنها نابعة من البنية الذهنية لحضارة هذا المفكر.

فضلاً عن أننا لن نستطيع إثباتها إثباتاً غير قابل للشك،فذلك عائد إلى يقين المفكر وغايته من البحث فيها.مع أن بعض المفكرين –ومن أمثالهم ميرسياإلياد– يقرون بإمكانية إقامة الدليل على بعض الأساطير (والتي تعرفنا من خلالها على مفهوم السببية).

"تعتبر الأسطورة بمثابة تاريخ مقدس،وهي في المحصلة،"تاريخ حقيقي"،لأنها،باستمرار ،تستند إلى وقائع.فأسطورة خلق الكون ،مثلاً،"حقيقية"،لأن وجود العالم ماثل للعيان ،ويقدم عنها الدليل.وقل الأمر ذاته عن أسطورة أصل الموت،فهي،بدورها،"حقيقية " لأن موت الإنسان يقدم عليها البرهان ...وهلم جراً."[18]

فإذا كانت السببية العلمية تعتمد قوانين عامة،ثابتة،يمكن تطبيقها على جميع الحالات،فإن السببية الأسطورية تدرك وجود الرابط بين النتائج والمقدمات.بل أكثر من ذلك:إن المفكر الرافدي "كانت له القدرة على أن يفكر تفكيراً منطقياً مترابطاً ومفهوماً في أي قضايا فكرية،بما في ذلك أصل الكون ونظام سيره.ولكن العقبة التي كانت تقوم حجر عثرة في سبيله هي أنه كانت تعوزه الحقائق العلمية المتيسرة لديه.وزيادة على ذلك كان ينقصه أيضاً النمو والتطور،لأن مبدأ النشوء والتطور الذي هو من البديهيات الآن كان غير معروف لديه بالمرة."[19]

إذن:لم تكن الظروف مواتية للإنسان الرافدي–في الفترة السومرية على الأقل حسب ما ذهب كريمر – ليضع نظرية علمية متكاملة ،وذلك لم يكن مرده إلى قصور فيالتفكير المنطقي لدى إنسان واديالرافدين ،وإنما يعود سبب ذلك إلى افتقاره للحقائق العلمية،فضلاً عن حاجته لمبدأ علمي هام هو مبدأ النشوء والتطور، وهو ما لم يكن متيسراً آنذاك .

مع أننا لا نرى أن ذلك يعيب المفكر الرافدي القديم، فهو في الواقع قد عمل بهذه المبادىء و لكن ربما لم يطلق عليها تعريفات و أسماء، و إلا فما الذي قاد هذا الإنسان للتفكير وفق الوسائل العقلية الضرورية للإستنتاجات العلمية الهامة نقصد الاستدلال والاستقراء ومبدأ المقارنة والذي أصبح من أهم المبادئالتي يعتمدها العلم اليوم في طريقه للوصول إلى فتوحات جديدة .

تقول مرغريتروثن في كتابها "علوم البابليين" إن "الفترة البابلية القديمة وتطور الفكر لدى هؤلاء القدامى هي أمور خاصة بالشرق القديم،فنعرف بوضوح أن تفكيرهم إنما كان يتم بالمقارنة أولاً،ثم،وبنوع ثانوي لا غير ،بطريقة الاستدلال،أو بالاستقراء والاستدلال معاً."[20]

ولنا في السحر خير مثال على ذلك:فقد كان السحر يستخدم علم الطب بشكل دقيق وموسع،وكان ذلك يتم بالاعتماد على ما جاء به المنطق البابلي،وإن كان لهدف يبدو للبعض غير ذي أهمية (اتقاء القوى الشريرة).

---

[18] إلياد، ميرسيا، ملامح من الأسطورة، ترجمة حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة، سورية، ط 1، 1995، ص 12.

[19] كريمر، صموئيل، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، القاهرة، د.ت، ص 159.

[20] روثن، مرغريت، علوم البابليين، ترجمة يوسف حبي، وزارة الأعلام، بغداد، 1980، ص 43.

إن العراقي القديم لم يعمل بهذه الشعائر ،من طب وسحر وتنجيم و...،إلا بعد ملاحظته لارتباط الأمور والأحداث بعضها ببعض،لم يكن فكره يقبل حدوث شيء بلا سبب،فلا بد من مسبب لكل ظاهرة،لا بد من وجود صلات بين الحوادث والظواهر ووراءها.

الخاتمة :

مما سبق نستطيع الإقرار بأن الفكر الرافدي القديم قد أخذ بمفهوم السببية – وإن بطريقة مختلفة عن فهمنا الحالي لها– فإيمانه بوجود الروابط بين الأحداث والظواهر ورفضه لوجود شيء من العدم أو عودته إلى العدم ،يعكس تلك البنية الذهنية التي تمتع بها هذا الفكر ،نقصد تلك البنية التي بحثت دائماً عن مسبب للأشياء،ولن يغير من الأمر شيئاً أن يكون هذا المسبب شخصاً ما ،إلهاً ما ...

وعلى هذا الأساس فقد تساءل المفكر الرافدي عن الأشياء :من الذي أوجدها ؟وكيف؟ولأية غاية ؟وما مصير هذه الأشياء ؟وما مصيره هو نفسه وسط كل تلك الموجودات التي يزخر بها عالمه.

بيد أن الدارس لهذه الحضارة سيقع في خطأ فادح إن هو بحث في هذه الحضارة بالطريقة نفسها التي تدرس بها الظواهر العلمية الثابتة ،بل يجب عليه أن يكون مطلعاً على تلك الحضارة بكافة مناحيها ،كما يجب عليه أن يعرف الرموز التي تعتبر مفاتيحاً هامة لفك الأساطير الرافدية والتعرف ،بالتالي، على القوانين والأنظمة التي كانت تسير الكون الرافدي.

إضافةً لذلك فإن الحضارة الشرقية عموماً،والرافدية خصوصاً، قد قدمت آراء في تفسير خلق العالم وفي أصل الموجودات ما يسوغ لنا القول بوجود علوم عند أصحاب هذه الحضارة.

وإن قال قائل:إننا لا نستطيع الإقرار بوجود مثل هذا العلم عند العراق القديم طالما أنهم لم يتوصلوا إلى درجة التجريد العقلي،فإننا نسأل هنا "من الذي سيقيس تلك الدرجة ؟فعندما أدرك أول رياضي أن هناك شيئاً مشتركاً بين ثلاث نخلات وثلاثة حمير ،ماذا كان مستوى فكرته هذه عن التجريد؟وعندما تصور اللاهوتيون البدائيون وجود الكائن المطلق غير المنظور وبدا كأنهم وصلوا إلى درجة لا يمكن تصورها من التجريد فهل كانت هذه الفكرة مجردة أم مجسمة ؟هل افترضوا الله افتراضاً أم رأوه بأعينهم ؟أكانت تلك المحاولات الأولى حلولاً عابرة أم تضمنت ألواناً من النظر الفكري ومن النزوع الديني الغني ؟أكانت عقلية أم لا عقلية ؟أكان العلم الأول عملياً منفعياً خالصاً ؟أكان في حاله تلك علماً محضاً أم خليطاً من العلم والفن والدين والسحر ؟[21]

وهكذا فقد تعرفنا على جانب مضيء آخر في حضارة وادي الرافدين العريقة ،تلك الحضارة التي كان ،ومازال،لها تأثير بالغ ودور فاعل في الحضارات الأخرى .

[21] **الصالح، عبد الحميد، الفلسفة القديمة، دار ابن حيان، دمشق، 1986، ص 11.**

المراجع العربية

1 تيزيني، طيب، دراسات في الفكر الفلسفي في الشرق القديم، مطبعة الأتحاد، دمشق، 1987، ص31.

2 حنون، نائل، عقائد الحياة و الخصب في الحضارة العراقية القديمة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2002، ص222-223.

3 زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، جامعة دمشق، ط 10، 2005، ص120.

4 السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، دمشق، ط 13، 2002، ص105.

5 الصالح، عبد الحميد، الفلسفة القديمة، دار ابن حيان، دمشق، 1986، ص7 و ص11.

المراجع المترجمة

1 إلياد، ميرسيا، ملامح من الأسطورة، ترجمة حسيب كاسوحا، وزارة الثقافة، سورية، ط 1، 1995، ص11 و ص12.

2 أوراسيل- بول ماسون، الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف الموسى، دار المعارف، مصر، 1947، ص75.

3 بوتيرو، جان، الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2005، ص120-121.

4 جوثن، مرغريت، علوم البابليين، ترجمة يوسف حبي، وزارة الثقافة و الإعلام، 1980، ص43.

5 فرانكفورت. هـ و آخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الحياة، بغداد، 1960، ص15-17و ص151 و ص241.

6 كامبل، جوزيف و مويرز، بيل، سلطان الأسطورة، ترجمة بدر الدين، تحقيق إيجي سفلاورز، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص60-64.

7 كريمر، صموئيل، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى' القاهرة، د.ت، ص159.

8 كلشكوف، الحياة الروحية في بابل، ترجمة عدنان عاكف حمودة، دار المدى، دمشق، ط 1، 1995، ص44-46.

9 هنري هوك، صموئيل، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة و الإعلام، بغداد، 1968، ص20.

10- هايدل، الكسندر، سفر التكوين البابلي، ترجمة سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا/ بغداد، ط 1، 2007، ص35.

المعاجم

1 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الرابع، ط 6، 1997، ص363.

2 الزبيدي، تاج العروس، دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد الثالث، د.ت، ص267.

3 الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، جزءان، ط 6، 1998، ص407.